جامعة السلطان قابوس
مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية

Sultan Qaboos University
Journal of Arts & Social Sciences

# السِّياسة الجهاديَّة للأمير الأندلسيِّ هشام الرِّضا (١٧٢-١٨٠هـ/٧٨٨-٧٩٦م) دراسة تاريخيَّة ونقديَّة مقارنة

**عامر أحمد القبَّج**

**أستاذ مشارك**
**قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية**
**جامعة النجاح الوطنية**
**نابلس، فلسطين**
amer.qobbaj@najah.edu

**تاريخ الاستلام: ٢٠١٩/١٢/١١**
**تاريخ القبول للنشر: ٢٠٢٠/٠٧/٠٦**

# السِّياسة الجهاديَّة للأمير الأندلسيِّ هشام الرِّضا (١٧٢-١٨٠هـ/٧٨٨-٧٩٦م) دراسة تاريخيَّة ونقديَّة مقارنة

عامر أحمد القبَّج

**الملخص**

**تتناولُ هذه الدِّراسة سياسة الأمير هشام الرِّضا بن عبد الرَّحمن الدّاخل(١٧٢-١٨٠هـ/٧٨٨-٧٩٦م) الجهاديَّة تجاه مملكة أستورياس الإسبانيَّة ودولة الفرنجة، الطّامعتين في الأراضي الأندلسيَّة، فحقَّقت جيوشُه النَّصر على قوّات ملك أستورياس برمودو الأوَّل في معركة نهر بوربيا عام١٧٥هـ/٧٩١م، وتمكَّنت من دخول مدينتَي جيرونة وأُربونة الفرنجيَّتين، والتَّوغُّل في أعماق أراضي مملكة أستورياس، وفرْض الحصار على عاصمتها أوفييدو خلال الحملات اللاحقة. وعلى الرَّغم من الهزيمة الَّتي حلَّت بالجيش الأندلسيِّ على يد قوّات الملك ألفونسو الثّاني في موقعة لوتس/لودوس عام١٧٨هـ/٧٩٤م، فإنَّ حملاته الجهاديَّة لم تتوقَّف، فأسهمت في إرهاق الإسبان والفرنجة عسكريّاً واقتصاديّاً، ونجحت خلال عهده في لجْم أطماعهم التَّوسُّعيَّة، بفضلِ جهود قادته ووُلاته وجُنده.**

**الكلمات المفتاحية: هشام الرِّضا، أستورياس، الفرنجة، أُربونة، لوتوس/لودوس.**

# The Jihadist Policy of the Andalusian Emir Hisham Al-Reda (172-180 AH\788-796 AD) -A Comparative Historical and Critical Study

Amer Ahmad Al-Qobbaj

Abstract:

This study deals with the Jihadist policy of Emir Hisham Al-Reda bin Abdul Rahman Al-Dakhil (172-180AH/788-796AD) towards the Spanish and Frankish ambitions in the Andalusian lands; his armies won against the forces of King of Asturias Bermudo I in the battle of Burbia River in 175AH/791AD. He was able to enter the Frankish cities of Girona and Narbonne and also go deep into the lands of Asturias and impose a siege on its capital, Oviedo, during the subsequent campaigns. Despite the defeat of his army by the forces of King Alfonso II in Lutos\Lodos Battle in 178AH/794AD, his jihadist campaigns did not stop, contributing to the military and economic weakness of the Spaniards and the Franks, and succeeded in curbing their expansionist ambitions, thanks to the efforts of his leaders, rulers and soldiers.

Keywords: Hisham Al-Reda; Franks; Asturias; Narbonne; Lutos\Lodos.

**المقدمة:**

تشتمل العديد من المؤلَّفات والدِّراسات التّاريخيَّة على معلومات قيِّمة حول مختلف النَّواحي السِّياسيَّة والدّينيَّة والثَّقافيَّة والعمرانيَّة الأندلسيَّة خلال عهد الأمير الأمويِّ هشام الرِّضا بن عبد الرَّحمن الدّاخل، فأفادت الدِّراسةُ منها بشكل أو بآخر، وأمّا الدِّراسات الحديثة التي اختصَّت بعهده على وجه التَّحديد؛ فلم يعثر البحثُ إلّا على واحدة منها: كتاب "هشام الرِّضا الأمير العادل والفقيه الأديب"، لأحمد إبراهيم الشَّعراوي، دار النَّهضة العربيَّة، بيروت، ١٩٧٣م، حاول فيه المؤلِّف الوقوف على مختلف جوانب سيرته وأحداث عصره، ولمّا لمْ يكُن هذا الكتاب دراسةً علميَّةً محكَّمةً؛ فقد خلَت صفحاتٌ بأكملها في غير موضع فيه من التَّوثيق، وفضلاً عن ذلك؛ لم يستنفد المؤلِّفُ المعلومات التي وردت في المصادر والمدوَّنات الأجنبيَّة، التي اعتمد على عددٍ قليلٍ منها، وبخاصَّةٍ حول الحملات الجهاديَّة التي جرَّدها الأمير هشام، عدا عن العديد من مظاهر الخلل في منهجيَّة التَّوثيق في بعض المواضع، وعلى الرَّغم من ذلك؛ يُعدُّ من المؤلَّفات المهمَّة للدّارسين والمهتمّين بالثَّقافة التّاريخيَّة حول عهد هذا الأمير. وأمّا بحث عبد الغفور روزي: "هشام بن عبد الرَّحمن الدّاخل وأسباب خلافته أباه في الإمارة"، المنشور في مجلَّة جامعة الملك سعود، مج١٥(٢)، ٢٠٠٣م، فعُني بتحليل الرِّوايات التّاريخيَّة حول أحقِّيَّة هشام في ولاية عهد أبيه، في سياق دراسة روايات ولاية العهد في العصر الأمويِّ الأندلسيِّ المبكِّر. وفي عام٢٠١٤م نُشرت دراسةٌ إسبانيَّة:

Riestra, F., Peraza, A., & Menendez, S. (2014). La Batalla de Lutos\Los Llodos (Asturias, Ano 794) Una Hipotesis de Ubicacion en las Veigas-Picu Mirayu, Grado-Grau, Villa y Alfoz, Actas de las, Jornadas de Estudios Locales, N. 4, Circulo de E.E. Pramarenses, Publicacion de Difusion Gratuita.

وهي دراسة جغرافيَّة الطّابَع والهدف، حاول مؤلِّفوها تحديد الموقع الجغرافيِّ لموقعة لوتوس عام١٧٨هـ/٧٩٤م، التي تعرَّض فيها الجيش الأندلسيُّ للهزيمة خلال عهد الأمير هشام. وعطفاً على كل ما ذُكر؛ تأتي هذه الدِّراسة "السِّياسة الجهاديَّة للأمير الأندلسيِّ هشام الرِّضا(١٧٢-١٨٠هـ/٧٨٨-٧٩٦م) -دراسة تاريخيَّة ونقديَّة مقارنة-" استكمالاً للجهود العلميَّة السّابقة، وتدعيماً لها، وبخاصَّةٍ أنَّها تركِّز على موضوعٍ بعينه، بناءً على ما ورد في المصادر والمراجع العربيَّة والأجنبيَّة، بالاعتماد على المنهج التّاريخيِّ الوصفيِّ التَّحليليِّ والنَّقدي، علَّها تُسهم في ملء بعض الثَّغرات وسدِّ بعض جوانب النَّقص في موضوعها في الكتابات العربيَّة وغيرها.

## تطوُّر العلاقات الإسلاميَّة المسيحيَّة وأثرها في السِّياسة الجهاديَّة للأمير هشام الرِّضا

من المعروف أنَّ الفتح الإسلاميَّ للأندلس قد بدأ عام٩٢هـ/٧١١م، واهتمَّ الفاتحون عقب ذلك بتنظيم شئون الحُكم والإدارة، فقُسِّمت البلاد إلى أربع ولاياتٍ كبيرةٍ، اشتملت الأولى على الإقليم الممتدّ ما بين البحر المتوسِّط ونهر الوادي الكبير(Guadalquivir)، وما يليه حتّى وادي يانة (Guadiana)، والثّانية على المناطق الوسطى، من المتوسِّط شرقاً إلى حدود البرتغال، ثمَّ إلى نهر دويره(Duero) شمالاً. وضمَّت الثّالثة غاليسيا (Galicia) ولوسيتانيا (Lusitania) (البرتغال القديمة)، وامتدَّت الرّابعة من دويره إلى جبال البرت(Pyrenees) على ضفَّتَي نهر إيبرو(Ebro)، وغرباً إلى غاليسيا. ولم يُدرك المسلمون أهميَّة فتح المنطقة الوسطى من أقاصي البلاد الشَّماليَّة، فتركوها لوعورة تضاريسها، فضلاً عن عوامل أخرى، فنشأت فيها أولى الممالك القوطيَّة؛ التي استغلَّت انشغال الولاة المسلمين في تثبيت أركان حكمهم وتوطيده، وتمكَّنوا من تأسيس إمارتين مسيحيَّتين، ما لبثتا أن اتَّحدتا على يد دوق كانتابريا (Cantabria) ألفونسو الأوَّل الكاثوليكي(Alfonso I) (١٢١-١٤٠هـ/٧٣٩-٧٥٧م). ولما اشتدَّ ساعده؛ استولى على مدينتَي أسْتُرقة (Astorga) عام١٣٦هـ/٧٥٣م، ولُك (لوغو) (Lugo, Luco)[١]، وبعض القواعد المجاورة في العام التّالي، فجلا معظمُ المسلمين عنها، ولم يتردَّد في عبور نهر دويرة ومهاجمة المزيد من الأراضي الإسلاميَّة (عنان، دولة، ١٩٩٧: ١/ ٧٠، ٢٠٨-٢١٤؛ عبدالحليم، ١٩٨٣: ٣٤-٤١)، فأصبحت مملكة أستورياس (Asturias) تشتمل على ألبة والقلاع (Castilla la Viega y Alava)[٢]، لاريوخا (La Rioja)، كانتابريا، وأستورياس وغاليسيا (O'Callaghan, 1975: 100).

واستغلَّ الملك فرويلا الأوَّل (Fruela I)(١٤٠-١٥١هـ/٧٥٧-٧٦٨م) انشغال الأمير عبد الرَّحمن الدّاخل(١٣٨-١٧٢هـ/٧٥٥-٧٨٨م) بالتَّصدّي للفتن الدّاخليَّة، فغزا مدن بُرتقال (Porto) وشَلَمنقة (Salamanca) وشَقُوبية (Segovia) وآبلة (Avila) وسمورة (Zamora) وقشتالة (Castilla) واستولى عليها، ما اضطرَّ الأمير المذكور إلى تجريد بعض الحملات الدِّفاعيَّة والتّأديبيَّة إلى أراضي أستورياس، كما استغلَّ المسلمون الثَّورات التي اضطرمت في غاليسا ضدَّ فرويلا، فضلاً عن أزمة الصِّراع على العرش خلال الفترة الواقعة من وفاة الملك سيلو (Silo) (١٥٧-١٦٦هـ/٧٧٤-٧٨٣م) حتّى عهد الملك موريغاتو (Mauregato) (١٦٦-١٧٢هـ/٧٨٣-٧٨٩م)، فاستمرّوا في مهاجمة المواقع الشَّماليَّة التي سيطر عليها المسيحيّون، وتمكَّنوا من استعادة بعضها(عنان، دولة، ١٩٩٧: ١/ ٢١٥-٢١٨). وذكرت بعض المصادر المسيحيَّة أنَّ موريغاتو استعان بقوّات الأمير الدّاخل لمساعدته على اغتصاب العرش من ابن أخيه، فبالغ في التودُّد للأندلسيّين والتقرُّب منهم، وتقديم ضريبة "المئة العذارى" (Tributo de las cien virgenes) لهم، واستمرَّت هذه العادة بعد ذلك، ما شكَّل إهانةً كبيرة للمسيحيّين (Risco, 1789: XXXVII, 121-122; Mariana, 1794: I, XLI)، ويبدو أن هذه الجزية ما هي إلا قصَّة مُختلقة أو أسطورة اخترعها البعض لتشويه صورة موريغاتو (Gebhardt, 1864: 379)، الذي لم يحظَ بثقة القوط، لأنَّه ارتبط بالعرب بصلة الدَّم من جارية عربيَّة، فحقد عليه رجال الدّين، وأخذوا يحرِّضون الشَّعب ضدَّه، فاضطربت أحوال البلاد في عهده، ما مكَّن الأمير الدّاخل من توجيه بعض الضَّربات للمناطق المناوئة له

(عنان، دولة، ١٩٩٧: ٢١٩/١). وبعد موته وقع الاختيار على برمودو الأوَّل (Bermudo I, Vermudo I) (١٧٢-١٧٥هـ/٧٨٨-٧٩١م)، الابن الثّاني لبيمارانو(Bimarano) الذي قُتل على يد أخيه فرويلا الأوَّل، وقيل إنَّه ابن فرويلا نفسه، ووُصف بأنه كان مُتواضعاً، مُسالماً، شهماً، لطيفاً، ولكنَّه ضعيف البنية الجسديَّة، فضلاً عن افتقاره إلى الشَّجاعة والمهارة العسكريَّة، وميله إلى حياة الرهبنة، وعلى الرَّغم من ذلك فقد حظي بتأييد شعبه، وحاول المحافظة على كيانه من السُّقوط (Mariana, 1794: I, XLI; II, 284-286; Quadrado, 1885: 67)، ثمَّ ما لبث أنْ تنازل عن العرش لألفونسو الثّاني (Alfonso II) (١٧٥-٢٢٧هـ/٧٩١-٨٤٢م)، بعد الهزائم التي تعرَّض لها على يد جيوش الأمير هشام الرِّضا (عنان، دولة، ١٩٩٧: ٢٢٠/١).

وكان ألفونسو الثّاني قائداً عسكريّاً شجاعاً، فعقد العزم منذ تولّيه الحكم على مقاومة هجمات المسلمين وشنِّ الحروب ضدَّهم، وبخاصَّة بعد إعلان الأمير هشام "الحرب المقدَّسة"، ومن أجل تحقيق هذا الغرض بدأ بحشد الجيوش وجمع السِّلاح (Prat, 1887: 129; Perez de Urbel, 1945: I, 103-104)، ويُسجَّل له قيامُه بتنظيم شئون مملكته، وتوطيد أركان الكنيسة؛ فقد كان يهدف إلى جعل مملكة أستورياس مرجعيَّة مسيحيَّة، متفوِّقةً دينيّاً على سكّان شبه الجزيرة الإيبيريَّة، وبخاصة أنَّ الدّين كان يشكِّل أحد أهمّ أعمدة المنظومة الفكريَّة والسِّياسيَّة الأستوريَّة، ويبدو أنَّ هذا ما دفعه إلى نقل عاصمته من برافيا (Pravia) إلى أوفييدو(Oviedo)[٣]، ليس لأهمِّيتها الدِّفاعيَّة وحسب، بل لاشتمالها على العديد من الأماكن المقدَّسة (Quadrado, 1885: 71; Avielino Gonzalez, 2013: 424; Cuevas, 2016: 8).

وخلال هذه الحقبة من تاريخ الصِّراع الأندلسيِّ الإسبانيِّ بدأت معالم الحدود بين الطَّرفين تظهر بوضوح، حيث شكَّل نهر دويرة حدّاً جنوبيّاً طبيعيّاً على طول الخطِّ الممتدِّ من مدينة برتُقال حتّى أوسمة (Osma)، ثمَّ ينعطف شمالاً حتَّى أراضي البشكنس (**Vascos**) (الشَّكل٢) الجنوبيَّة (Mariana, 1794: II, 284; O'Callaghana, 1975: 100)، الذي يسكنون شرق أستورياس، حول خليج بسكاي(Golfo de Vizcaya)، وامتدَّت أراضيهم حتّى نهر الجارون(Garonne) جنوب بلاد الفرنجة، واتَّخذوا من مدينة بمبلونة (Pamplona) قاعدة لهم (عبد الحليم، ١٩٨٣: ٤٢، ٩١).

ووضع ملوك مملكة أستورياس على رأس أولويّاتهم، في هذه المرحلة، العمل على منع المسلمين من التمدُّد شمالاً، والاستمرار في ممارسة سياسة الاسترداد (Reconquista)، سيراً على سُنَّة أسلافهم، بتشجيع من الفرنجة أحياناً، في وقتٍ لم يتوقَّف فيه الأندلسيّون عن توجيه حملاتهم المضادَّة (Puyol, 1926: 79).

وما أن اعتلى الأمير هشام الرِّضا عرش الإمارة الأمويَّة بعد وفاة أبيه الدّاخل في ٢٤ربيع الآخر١٧٢هـ/٣٠سبتمبر٧٨٨م حتّى عقد العزم على مواجهة السِّياسة المسيحيَّة المعادية، متسلِّحاً بتأييد المؤسَّسة الدّينيَّة، وعلى رأسها الفقهاء والعلماء، الذين كان لهم حضورٌ فاعلٌ وتأثيرٌ كبيرٌ في دولته، وكان هؤلاء قد هالهم انشغاله عن الجهاد بالتَّصدي للثَّورات الدّاخليَّة في بداية عهده، فذهبوا مذهباً متطرِّفاً، حيث أفتى بعضُهم بالامتناع عن دفع الخراج ما دامت فريضة الجهاد معطَّلة(إبراهيم، ٢٠١٨: ٢٣٦)، ولعلَّ ما تناهى إلى مسامعه من أحد المنجِّمين أنَّ فترة حكمه لن تتجاوز ثمانية أعوام قد حفَّزه على تكثيف الحملات الجهاديَّة، سعياً منه لنيل رضا الله تعالى (ابن الخطيب، ١٩٥٦: ١٣؛ المقَّري، ١٩٨٨: ٣٣٥/١). وأمّا بعض الكتابات المسيحيَّة فتعزو النَّشاط الجهاديَّ للأمير خلال عهدي الملكين برمودو الأوَّل وألفونسو الثّاني إلى امتناعهما عن الاستمرار في دفع "جزية المئة العذارى"، التي حاول برمودو استبدالها بالمال، وأمّا الفونسو الثّاني فرفضها، ولهذا لقِّب بالعفيف (Risco, 1789: XXXVII, 134; el Casto)(Mariana, 1794: II, 286; Torrente, 1827: I, 98)، ولا يميل البحث إلى الاعتقاد بصحَّة ذلك، لغياب القرائن المصدريَّة في الكتابات الإسلاميَّة.

ومهما يكن؛ فقد وصفت المصادر التّاريخيَّة هشاماً أنَّه كان أنشط الأمراء الأندلسيّين في مواجهة الخطر المسيحي، ومن أكثرهم رغبةً في الجهاد، ومن أشدِّهم على الأعداء (ابن خلدون، ٢٠٠٠: ١٦٠/٤؛ المقَّري، ١٩٨٨: ٣٣٨/١)، ولم تتردَّد المصادر المسيحيَّة في الإشارة إلى شجاعته، وأضافت أنَّه كان يقود جيوشه بنفسه، سيراً على العادة المتأصِّلة لدى حكّام العرب وأمرائهم (Lane-Poole, 1898: 71)، ولهذا أدرك المسيحيّون، بعد توليته، أنَّهم مقبلون على أيّام عصيبة، وبأنَّ الصِّراع مع المسلمين بات صراع وجود، وما زاد من مخاوفهم ما تناهى إلى علمهم أنَّه كان ينظر للحرب ضدَّهم أنَّها واجب جهادي مقدَّس، يهدف إلى تحقيق الحُلم الذي طالما راود أباه، وهو القضاء على مملكة أستورياس، وفرض الجزية على رعاياها (Perez de Urbel, 1945: I, 101). ولهذا سارع إلى إصدار تعليماته لقادته بالاستعداد، وأرسل كُتباً إلى وُلاة البلاد وخُطباء مساجدها، لاستنفار الناس وبذْل النَّفس والمال وتقديم الخيل والعتاد في سبيل الله، فاستجاب منهم عددٌ كبير، واجتمع بين يديه ثلاثة جيوش، قرَّر إرسالها إلى أراضي مملكة أستورياس وبلاد البشكنس والفرنجة (Lafuente, 1850: III, 161)، ما مكَّنه من تجريد أولى حملاته ضدَّ الأراضي المسيحيَّة عام١٧٥هـ/٧٩١م.

## الحملة الأندلسيَّة الأولى ومعركة نهر بوربيا (Batalla del Rio Burbia)

بدت الرِّوايات التّاريخيَّة متناقضة في كثيرٍ من جوانب معلوماتها حول هذه الحملة التي حدثت عام ١٧٥هـ/ ٧٩١م، ولنبدأ بالرِّواية الإسلاميَّة التي تتحدَّث عن حملة عسكريَّة مزدوجة، وقف على رأسها قائدان هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وأبو الحجّاج يوسف بن بخت الفارسي[٤]، حيث زحف الأوَّل على رأس قوّاته[٥]، متتبِّعاً مسار نهر إيبرو حتّى وصل إلى منطقتي ألبة والقلاع(الشكل٢)، واشتبك فيهما مع المسيحيّين، وتمكَّن من قتل أعدادٍ كبيرةٍ منهم(ابن الأثير، ١٩٨٧: ٢٨٩/٥؛ ابن عذاري، ١٩٨٣: ٦٣/٢؛ ابن خلدون، ٢٠٠٠: ١٥٩/٤؛ المقَّري، ١٩٨٨: ٣٣٧/١)، وانفرد ابن عذاري بجعْل هذه الحملة عام١٧٦هـ/٧٩٢م، وأضاف

أنَّ عدد قتلى المسيحيّين بلغ أكثر من تسعة آلاف، واستطرد قائلاً بأنَّ الجيش الذي قاده يوسف بن بخت سار إلى غاليسيا في النّاحية الغربيَّة من مملكة أستورياس، وتمكّن من إلحاق الهزيمة بجيش الملك برمودو الأوَّل، وقتْل ما يقرب من عشرة آلاف من قادته وأفراده، عدا عن أولئك الذين قُتلوا في ثنايا الجبال الوعرة خلال محاولتهم الفرار(ابن عذاري، ١٩٨٣: ٢/٦٣)، يُشار هنا أنَّ بيريث دي أبريل قد تبنّى الرّواية الإسلاميَّة، وبخاصَّة رواية ابن عذاري، فيما يتعلَّق بهويَّة القادة الذين وقفوا على رأس هذه الحملة، وكذلك حول عدد القتلى الإسبان (Perez de Urbel, 1945: I, 102). وأضاف ابن الأبّار المُعاصر لابن عذاري أنَّ فيء هذه الغزوة بلغ تسعة وثلاثين ألفاً (ابن الأبّار، ١٩٨٥: ٢/٣٧٥). ويبدو أنَّ الأمر قد اختلط عليه؛ وربَّما كان المقصود من ذلك أعدادَ الجند الذين شاركوا فيها، كما سيتبيَّن لاحقاً. وفضلاً عن المبالغة التي اشتملت عليها الأرقام المتعلِّقة بأعداد القتلى المسحيّين؛ فإن المصادر الإسلاميَّة لم تحدِّد الموضع الدَّقيق لهذه المعركة.

ولم تخلُ المصادر المسيحيَّة هي الأخرى من التناقضات؛ فيذكر المؤرِّخ الإسبانيُّ لافوينتي أنَّ الأمير قد وجَّه إلى الأراضي المسيحيَّة عام١٧٥هـ/٧٩١م ثلاثة جيوش في آنٍ واحد، وقف على رأس أحدها الحاجب عبدالواحد بن مغيث الرّومي (ت. ١٩٨هـ/٨١٤م)[٦] ومعه أربعون ألف مقاتل، اندفع نحو لُك وأسترقة يدمِّر الأرياف ويتلف المزروعات، ثمَّ قفل عائداً نحو الجنوب مُثقلاً بالغنائم والأسرى والماشية، وفي الطَّريق اصطدم على ضفاف نهر بوربيا بقوّات الملك برمودو، وعلَّق لافوينتي على ذلك بقوله أنَّ المسلمين، في كتاباتهم، يحاولون تجيير النَّتائج لصالحهم، بينما يقدِّم المؤرِّخون المسيحيّون تفسيراً مختلفاً، وأضاف أنَّ الجيش الثّاني، الذي لم يذكر قائدَه، قد اخترق بلاد البشكنس تدميراً وأسراً، وأمّا الثّالث بقيادة عبدالله بن عبدالملك بن مروان، صِهر الأمير، فتوجَّه إلى جنوبيِّ بلاد الفرنجة (Lafuente, 1850: III, 161-162)، ويبدو أنَّ المؤرِّخ المذكور قد جانب الصَّواب في ذلك، إذْ لم يتوجَّه أيُّ جيش خلال هذه الحملة إلى بلاد الفرنجة، فضلاً عن إغفالِه دوْر كلٍّ من أبي عثمان عبيد الله بن عثمان ويوسف بن بخت في هذه الحملة، في وقت ذكرت فيه بعض المصادر المسيحيَّة الأخرى يوسفَ وأهملت أبا عثمان تماماً، فقيل أنَّ الأمير هشام قد دفع بقوّاته نحو الشَّمال بقيادة عبدالواحد بن مغيث وعبدالله بن عبدالملك، ثمَّ لحق بهما يوسف بن بخت بعد وصولهما إلى الأراضي المسيحيَّة (Gebhardt, 1864: 388; Conde, 1900: I, 235)، وأشار المؤرِّخ الإسباني فيكتور غيبهارت أنَّ حماسَ هؤلاء القادة الثَّلاثة لا يقلُّ عن نظرائهم خلال العهود الإسلاميَّة التي تلت الهجرة النَّبويَّة، واستخدم، أُسوةً بكثير من المؤرِّخين المسيحيّين، مصطلح ساراكينوس(Sarracenos)، ويعني "الشَّرقيّون"، والقراصنة أيضاً، للإشارة للمسلمين (Gebhardt, 1864: 388, 389))، وذكر كوندي أنَّ القسم الأوَّل بقيادة عبدالواحد وعبدالله كان يضمُّ ثلاثين ألف مقاتل (Conde, 1900: I, 235)، أو تسعة وثلاثين ألفاً، اندفعوا نحو لُك وأسترقة تخريباً وأسراً، وامتدَّ عيثُهم إلى غاليسيا وألحقوا فيها الدَّمار، وأمّا يوسف بن بخت، فعندما وصل إلى الشَّمال، تحوَّل شرقاً نحو جبال البرت، فاخضع جميع المدن على طول الطَّريق، ودمَّر القرى، وأسر عدداً كبيراً من أهلها، وسلب ماشيتها وممتلكاتها (Gebhardt, 1864: 388-389; Quadrado, 1885: 67; Conde, 1900: I, 235).

واكتفت بعضُ المصادر المسيحيَّة بالقول إنَّ أحد الجيوش الإسلاميَّة اشتبك في معركة محدودة مع قوّات الملك برمودو، في السَّنة الأخيرة من عهده، على ضفاف نهر بوربيا (Burobia, Burebia Burbia,)، وأشارت أنَّ المصادر الإسلاميَّة تتحدَّث عن نصر كبير، بعكس المصادر الإسبانيَّة واللاتينيَّة، التي قلَّلت من شأنها، وتناولتها باقتضاب شديد، إلا أنَّ المصادر اللاحقة تحدَّثت بوضوح على هزيمة جيش الملك برمودو، وعودة الجيش الإسلامي محمَّلاً بالغنائم، وحدَّدت موقع المعركة على ضفاف النَّهر المذكور قريباً من قرية فيلافرانكا ديل بييرثو(Villafranca del Bierzo) في غاليسيا (الشَّكل٣) (Quadrado, 1885: 67; Perez de Urbel, 1945: I, 102). وأخيراً ذكر بيريث دي أربل أنَّ هذه الهزيمة قد تركت بصماتها المؤلمة في ذاكرة المسيحيّين، وأضاف أنَّ هذا التَّوغُّل الإسلامي في الأراضي المسيحيَّة يُعدُّ الأوَّل من نوعه منذ عشرين سنة خلت (Perez de Urbel, 1945: I, 102-103).

ويتَّضح من المعطيات المذكورة أنَّ معلومات المصادر التّاريخيَّة حول هذه الحملة قد بدت متناقضة ومُربكة إلى حدٍّ ما، وعليه؛ يرجِّح البحثُ أنَّ والي بلنسية القائد أبا عثمان عبيد الله بن عثمان قد شارك على رأس قوّاته المرابطة في المناطق الشَّماليَّة الشَّرقيَّة التي عُرفت باسم الثَّغر الأعلى(الشَّكل١)[٧] في مهاجمة الأراضي المسيحيَّة المتاخمة، وبخاصَّة بلاد البشكنس وألبة والقلاع، وذلك بالتَّزامن مع الفعّاليّات الجهاديَّة التي كان ينفِّذها الجيشان الآخران؛ جيش كلٍّ من عبدالواحد وعبدالله، وقوّات يوسف بن بخت التي انتصرت على ملك أستورياس برمودو الأوَّل في معركة نهر بوربيا. ومن ناحية أخرى، فإنَّ المصادر التّاريخيَّة لم تذكر قيام المسلمين بالاحتفاظ بأيٍّ من المدن أو المعاقل الإسبانيَّة التي مرّوا بها أو فتحوها خلال هذه الحملة.

وبعد هذه الهزيمة تنازل برمودو الأوَّل عن العرش لألفونسو الثّاني، واعتزل العمل السِّياسي، واعتكف في أحد الأديرة، ولقِّب بالرّاهب أو الشَّماس (el Diacono) (Perez de Urbel, 1945: I, 103)، وأمّا الأمير هشام فاستغلَّ الفترة الانتقاليَّة، وجرَّد في العام التّالي(١٧٦هـ/٧٩٢م) حملة عسكريَّة بقيادة عبدالملك بن عبدالواحد بن مغيث (ت. ٢٠٩هـ/٨٢٤م)[٨] إلى ألبة والقلاع، فأثخن في نواحيها (ابن الأثير، ١٩٨٧: ٥/٢٩٦؛ النُّويري، ١٩٨٤: ٢٣/٢٠٨؛ ابن خلدون، ٢٠٠٠: ٤/١٦٠؛ المقّري، ١٩٨٨: ١/٣٣٧)، ولم تتطرَّق المصادر الإسلاميَّة إلى أيَّة تفاصيل أخرى. وأمّا المصادر المسيحيَّة فأشارت إلى هذه الحملة، وأفادت أنَّ المسلمين زحفوا عبر مداخل جبال الباسك وأوديتها نحو المناطق الداخليَّة، ووصلوا إلى قرى وادي باستان (Bastan)، أحد روافد نهر إيبرو، ثم عبروا إلى ألبة والقلاع، فهجر الناس مدنهم وقراهم، واختبأ بعضهم في الكهوف، وفي جحور الحيوانات البريَّة وأوكارها، فعاث المسلمون في أراضهيم خراباً، وأحرقوا البيوت، وسلبوا المواشي، وحازوا على الكثير من

الغنائم (Gebhardt, 1864: 389; Quadrado, 1885: 71; Conde, 1900: I, 235).

## السِّياسة الفرنجيَّة تجاه أقاليم الثَّغر الأعلى، والحملة الأندلسيَّة على جيرونة وأُربونة

بعد أن انتظمت بلاد الأندلس تحت الحكم الإسلاميِّ، وضع ولاتها نُصب أعينهم مدَّ نفوذهم إلى بلاد الفرنجة، فعبروا جبال البرت إلى الأراضي الجنوبيَّة الفرنجيَّة، وفتحوا عدداً من مدن إقليم سبتمانيا (Septimanie, Languedoc)، ثمَّ ضمَّها الوالي السَّمح بن مالك الخولاني(١٠٠-١٠٢هـ/٧١٩-٧٢١م)[٩] إلى بلاد الأندلس، ووزَّع الأراضي، وفرض الجزية على سكّانها، وترك لهم حرِّية الاحتكام إلى شريعتهم، ولم يتمكَّن السَّمح من فتح مدينة طولوشة(Toulouse)(الشَّكل١)، واستُشهد وهُزم جيشُه على يدِ الفرنجة عام١٠٢هـ/٧٢١م(عنان، دولة، ١٩٩٧: ١/ ٧٣، ٧٦، ٨٠، ٨١). وعلى الرَّغم من الهزيمة الإسلاميَّة في بلاط الشُّهداء (Pataille de Poitiers) عام١١٤هـ/٧٣٢م وتقلُّص زخم الحملات الإسلاميَّة خلف جبال البرت، إلا أنَّها لم تتوقَّف تماماً؛ فبعد سنتين عبر المسلمون نهر الرون (Rhone) وسيطروا على بعض المدن الفرنجيَّة، ولكنَّ الملك شارل مارتل (Charles Martel) (٩٩-١٢٣هـ/٧١٨-٧٤١م) أخرجهم منها، ومع ذلك ظلّوا يحتفظون ببعض المعاقل في إقليم سبتمانيا، وبخاصَّة مدينة أُربونة (Narbonne) (الشَّكل١)، فحاصرها الملك بيبن الثَّالث القصير (Pepin III le Bref) (١٣٣-١٥١هـ/٧٥١-٧٦٨م) عام ١٤٠هـ/٧٥٧م، ولما حاول الأمير عبد الرَّحمن الداخل فكَّ الحصار عنها؛ هُزم جيشه، إلى أن تمكَّن الفرنجة من انتزاعها عام١٤٢هـ/٧٥٩هـ بعد أنْ بقيت في أيدي المسلمين أربعين عاماً، ما أدّى إلى انتهاء الوجود الإسلامي في سبتمانيا (O'Callagan, 1975: 98).

وبدوره اتَّبع الملك الفرنجي شارلمان (Charlemagne) (١٥١-١٩٨هـ/٧٦٨-٨١٤م) سياسة معادية لمسلمي الأندلس؛ بهدف طردهم منها وتحقيق أطماعه في السَّيطرة عليها، إلا أنَّ جيشه تعرَّض لنكبة كُبرى خلال حملة عام١٦١هـ/٧٧٨م، وذلك عندما فشل في السَّيطرة على مدينة سرقسطة (Zaragoza) (الشَّكل١) (للتفاصيل؛ انظر: الشَّيخ، ١٩٨١: ١٣٧-١٦٠)، وعلى الرَّغم من ذلك، استمرَّت أطماع الفرنجة في الأراضي الأندلسيَّة؛ حيث سيطروا عام١٦٨هـ/٧٨٥م على مدينة جيرونة (Gerona, Girona)، الواقعة شمال شرق مدينة برشلونة (Barcelona) (الشَّكل١)، وشُحنت بحامية قويَّة، ما دعا البعض إلى جعْلها ضمن بلاد الفرنج مع أنَّها أندلسيَّة الموضع، وشكَّل الاستيلاء عليها خطوة أولى على طريق السَّيطرة على برشلونة. وعندما تولَّى الأمير هشام الحُكم انتهز الفرنجة فرصة انشغاله بالتَّمرُّدات الدّاخليَّة، فقاموا بالاستيلاء على جنوب سبتمانيا المحاذي للسّاحل المتوسطيِّ، وعلى مدينة أورغل(Urgel) شمال غرب برشلونة عام١٧٣هـ/٧٨٩م(ابن الأثير، ١٩٨٧: ٥/ ٢٩٧؛ النُّويري، ١٩٨٤: ٢٣/ ٢٠٨؛ مجهول، تاريخ، ٢٠٠٧: ١٧٢؛ الشَّيخ، ١٩٨١: ١٦٠-١٦١؛ بروفسال، ٢٠٠٠: ١٣٢). ومن أجل مواصلة العمل على تحقيق الأهداف الفرنجيَّة عقد دوق أقيطانية (Aquitani) لويس التَّقي بن شارلمان (Louis le Pieux)(ت. ٢٢٥هـ/٨٤٠م) ميثاق حلْف وصداقة في طولوشة مع أبي ثور بن قسيّ(١٠) حاكم مدينة وشقة (Huesca) عام١٧٤هـ/٧٩٠م (Gebhardt, 1864: 389-390).

ويبدو أنَّنا لا نجد في عصر الإمارة أعمالاً جهاديَّة خلف جبال البرت إلا القليل؛ لعدم احتفاظ المسلمين بمراكز جهاديَّة هناك، وبسبب قيام مملكة أستورياس في شمال شبه الجزيرة الأيبيريَّة، وهذا لا يعني خلوَّ هذا العصر من حملات لردع الفرنجة والوقوف في وجه أطماعهم، وبخاصة عام١٧٧هـ/٧٩٣م، حيث سيَّر الأمير هشام جيشاً كثيفاً بقيادة الحاجب عبدالملك بن عبدالواحد بن مغيث؛ مُنتهزاً فرصة انشغال جيش شارلمان بالحروب مع الآفار (Avars) والسَّكسون (Saxsons)، وتغيُّب لويس حاكم أقيطانية على رأس حملة عسكريَّة في إيطاليا، ومعه خيرة قوّاته(ابن الأثير، ١٩٨٧: ٥/ ٢٩٧؛ نعنعي، ١٩٨٦: ١٧٨؛ بروفنسال، ٢٠٠٠: ١٣٢). واصطحب عبدالملك معه جماعةً من العلماء وفي مقدِّمتهم يحيى بن يحيى الليثي(ت. ٢٣٤هـ/٨٤٩م)(مجهول، تاريخ، ٢٠٠٧: ١٧٢)، أحد كبار فقهاء الأندلس ومحدِّثيها في عصر الإمارة الأمويَّة (انظر سيرته: ابن الفرضي، ٢٠٠٨: ٢/ ٢٢٢-٢٢٥). ووصل القائد إلى مدينة جيرونة الفرنجيَّة على رأس جيشٍ إسلاميٍّ كبير، فحاصر حاميتها وهدم أسوارها وأبراجها، وقتل رجالها والمدافعين عنها، وتمكَّن من السَّيطرة عليها وعلى عددٍ من الحصون القريبة، ثمَّ انطلق متوغِّلاً في سبتمانيا قاصداً مدينة أُربونة؛ قاعدة الثَّغر الإسلاميِّ القديم، ودمَّر في طريقه القرى والحقول والكنائس، ووصل المدينة دون مقاومة، فأثخن في أهلها والمدافعين عنها قتلاً وأسراً (ابن الأثير، 1987: 5/297؛ Conde, 1900: I, 235; Gebhardt, 1864: 389-390). وتفيد الرِّواية الإسلاميَّة أنَّ المدينة قد فُتحت ووقعت في قبضة المسلمين(ابن القوطيَّة، ١٩٨٩: ٦٢/٢؛ المقَّري، ١٩٨٨: ١/ ٣٣٧)، أي أنَّهم وضعوا فيها حامية عسكريَّة لضمان استمراريَّة السَّيطرة عليها، ولكن الرِّوايات الفرنجيَّة لا تذكر شيئاً من هذا القبيل، وتؤكِّد أنَّهم ارتدّوا عنها لحصانتها ومنعتها، وبخاصَّة أنَّها كانت مستودعاً لأسلحة الفرنجة، وإحدى أهمِّ قواعدهم(بروفنسال، ٢٠٠٠: ١٣٢؛ Gebhardt, 1864: 390).

ويتَّضح ممّا ذُكر أنَّ المسلمين قد دخلوا مدينة أُربونة واستباحوها على الرَّغم من حصانتها، ولكنَّهم ما لبثوا أن انسحبوا منها، ثمَّ واصلوا زحفهم غرباً حتّى وصلوا أرض شرطانية[١١]، فقتلوا مقاتلتها، وجاسوا خلالها شهوراً يخرِّبون الحصون ويحرِّقون القرى، ما جعل القوّات الفرنجيَّة والأهالي على حدٍّ سواء يلوذون بالفرار(ابن الأثير، ١٩٨٧: ٥/ ٢٩٧)، وواصل الجيش الإسلاميُّ زحفه نحو قرقشونة(Carcasona)(الشَّكل١) الواقعة إلى الغرب من أُربونة، بهدف السَّيطرة عليها، وما أن اجتاز نهر أوربيو(Orbieu)، أي بعد مسافة قصيرة من النُّقطة التي يصبُّ فيها في نهر أودي(Aude) حتّى وجد دوق طولوشة جيوم (غيليرمو، وليام)(Guillaume de Gellone)(١٧٤-١٩٥هـ/٧٩٠-

٨١١م) قد جمع قوّاته وهرع لإعاقة زحفه وقطْع الطَّريق عليه، فالتقى الطَّرفان بالقرب من قرية بييدين(فلدن، فيل دني) (Villediagne)(الشَّكل١)، الواقعة إلى الشَّمال الغربيِّ من أُربونة، على الضِّفاف الغربيَّة من نهر أوربيو، وخاضا معركةً غير متكافئة، استمرَّت لساعات، تكبَّدا فيها خسائر بشريَّة كبيرة، وعلى الرَّغم من التَّحذيرات والنِّداءات التي أطلقها الدّوق لحثِّ جنوده على الثَّبات؛ إلا أنَّهم فرّوا تاركين السّاحة للمسلمين، فدارت الدّائرة على القوّات الفرنجيَّة التي تكبَّدت هزيمة ماحقة، ووقع الدّوق أسيراً في أيدي المحاربين المسلمين. وخلال هذه النَّكبة كان شارلمان مشغولاً بالإشراف على شقِّ قناة مائيَّة تربط أراضي الإمبراطوريَّة الفرنجيَّة بين نهري الرّاين(Rhein) والدّانوب(Danube)، وبعد هذا النَّصر انسحب الجيش الأندلسيُّ جنوباً نحو جبال البرت محمَّلاً بالغنائم والأسرى، وكان انسحابه بطيئاً واحتفاليّاً، وهذا يعني أنَّ العديد من مدن وبلدات منطقة أُربونة من نهر تيت(Tet) -يصب في المتوسط بالقرب من مدينة بربنيون(Perpignan) جنوب فرنسا- إلى جبال البرت كانت تحت سيطرته(بروفنسال، ٢٠٠٠: ١٣٢؛ Gebhardt, 1864: 390-391).

ويبدو أنَّ المسلمين ارتكبوا خطأً استراتيجياً عندما انسحبوا دون استثمار نتائج انتصاراتهم، من خلال ملاحقة القُوّات المهزومة والسَّيطرة على المزيد من المواقع الفرنجيَّة، والاحتفاظ بالمواقع المُفتتحة كأُربونة وجيرونة وغيرهما بعد شحنها بحاميات عسكريَّة إسلاميَّة. ومن ناحية أخرى؛ ذكرت بعض المصادر التّاريخيَّة أمراً غريباً لم تعهده السِّياسة العسكريَّة الإسلاميَّة من قبل، ما يضع العديد من علامات الاستفهام حول مصداقيَّة حدوثه؛ قال المقَّري: اشترط المسلمون بعد فتح أُربونة، بناءً على تعليمات الأمير هشام، على المعاهِدين من أهل غاليسيا، القيام بنقل "عددٍ من أحمال التُّراب من سور أُربونة المُفتتحة، يحملونها إلى باب قصره بقرطبة(Cordova)، وبنى منه المسجد الذي قدّام باب الجنان، وفضلت منه فضلةٌ بقيت مكوَّمة"(المقَّري، ١٩٨٨: ١/٣٣٧)، وكان المؤرِّخ الإسبانيُّ ورئيس أساقفة طليطلة(Toledo) رودريغو خيمينيس(Arzobispo Don Rodrigo Jimenez) (٦٠٥-٦٤٥هـ/١٢٠٩-١٢٤٧م)، الذي شملت ولايته الدّينية مدينة أُربونة أيضاً، قد ذكر من قبل أنَّه من أجل الانتهاء من مسجد قرطبة أحضر المسلمون التُّراب على أكتاف المسيحيّين من أُربونة، وعلَّق على ذلك بقوله: "إنَّها وقاحة البربر الذين نسوا التَّسامح والتَّواضع والاعتدال عندما ازدهرت دولتهم"(Mariana, 1794: II, 287)، وأشار غيبهارت هو الآخر إلى هذه الحادثة(Gebhardt, 1864: 391)، وذكر عنان أنَّ الأمير هشام هدف من وراء هذا العمل تمجيد هذه الغزوة الشَّهيرة وتخليد الانتصار الباهر الذي تمخَّضت عنه(عنان، دولة، ١٩٩٧: ١/٢٢٧)، مع العلم أنَّ العديد من المصادر الإسلاميَّة قد ذكرت قيام هشام بعد هذه الغزوة بإكمال بناء جامع قرطبة وإصلاح قنطرة السَّمح بن مالك، وإنفاقه في سبيل ذلك أموالاً عظيمة، ولكنَّهم لم يقرنوا هذه الأعمال برواية التُّراب المحمول من أُربونة، ولم يذكروها أساساً(ابن القوطيَّة، ١٩٨٩: ٢/٦٢؛ ابن الأثير، ١٩٨٧: ٥/٣٠٩؛ ابن عذاري، ١٩٨٣: ٢/٦٦؛ ابن خلدون، ٢٠٠٠: ٤/١٦٠؛ ابن الخطيب، ١٩٥٦: ١٢).

وعطفاً على ما ذُكر، يتَّضح من سياق الأحداث أنَّه لم تجرِ أيَّة مفاوضات بين المسلمين والمسيحيّين حول شروط الانسحاب من مدينة أربونة، كما أنَّه ليس من المعقول أنْ يتمَّ جلب التُّراب والحجارة منها لاستخدامها في إكمال جامع قرطبة، مع الأخذ بعين الاعتبار المسافة الشَّاسعة التي تفصل بين المدينتين، وبخاصَّة أنَّ مواد البناء كانت متوفِّرة بكثرة في الجنوب الأندلسيِّ. فضلاً عن ذلك؛ لم يُعرف في تاريخ الحروب الإسلاميَّة أنهم استخدموا الأسرى لنقل الحجارة والتُّراب بين المدن. وما يجعل الأمر في غاية الغرابة ما ورد لدى المقَّري أنَّ من قام بهذه المهمَّة هم مسيحيو غاليسيا، التي كانت حينذاك تحت الحكم الإسباني، مع أن الأمر يتعلَّق بأُربونة الفرنجيَّة، وأمّا ما ورد لدى عنان حول سعي الأمير هشام لتخليد ذكرى الغزوة، فهو أمرٌ غير مقنع. ويوضح المؤرخ الإسباني لافوينتي الأمر بقوله أنَّ أسرى أربونة ربَّما سُخِّروا في أعمال إكمال بناء الجامع، ما خلق تقليداً شعبيّاً شاع في الأوساط المسيحيَّة مفادُه أنَّهم أُجبِروا على حمل التُّراب والحجارة على أكتافهم من أربونة إلى العاصمة(Lafuente, 1850: III, 163-164). وفي كلِّ الأحوال فإنَّ منبع هذه الرِّواية هو المصادر المسيحيَّة، التي حاولت من خلالها إظهار أخلاقيّات الحرب الإسلاميَّة على نحوٍ مشوَّه، كوسيلة من وسائل التَّحريض والدِّعاية المضادَّة، وهذا ما يُشتم ممّا ورد على لسان رئيس الأساقفة. ويبدو أنَّ بعض المصادر الأخرى، الإسلاميَّة والمسيحيَّة على حد سواء، قد تبنَّت هذه الرِّواية دون تمحيص أو تثبُّت.

ومن ناحية أخرى؛ أسهبت الرِّوايات التّاريخيَّة في ذكر عِظَم الغنائم والأسلاب التي استحوذ عليها المسلمون في هذه الغزوة، والأعمال الإنشائيَّة التي تمَّ تشييدها بالخُمس المتحصِّل منها (حصَّة الدَّولة)، فقيل إنَّ المسلمين عادوا بكميّات كبيرة من الذَّهب والفضَّة والمنسوجات الثَّمينة، وعندما وصلوا قرطبة بهذه الثَّروات وأخبار الحملات النّاجحة عمَّت الاحتفالات(Gebhardt, 1864: 389; Conde, 1900: I, 235-236). وقدَّرت المصادر التّاريخيَّة خُمس الغنائم بخمسةٍ وأربعين ألفَ دينار (أو مثقال) من الذَّهب العين[١٢]، وعلَّق على ذلك غيبهارت بقوله: على الرَّغم من عنصر المبالغة الذي اصطبغت به الرِّوايات التّاريخيَّة حول هذا الأمر، فإنَّ ذلك غير مُستبعد، فكنيسة أُربونة لوحدها، التي نهبها المسلمون، كانت من أكبر الكنائس وأغناها في بلاد الفرنجة(Gebhardt, 1864: 390). وعُدَّ النَّصر الإسلامي في هذه الغزوة فتحاً عظيماً، ومن أشهر انتصارات المسلمين بعد هزيمة بلاط الشُّهداء(ابن الأثير، ١٩٨٧: ٥/٢٩٧؛ ابن عذاري، ١٩٨٣: ٢/٦٤؛ نعنعي، ١٩٨٦: ١٧٨). ومن ناحية أخرى؛ رفعت نتائجُها معنويات الأمير هشام، وعيَّن عبدالله بن عبدالملك بن مروان لمتابعة الحرب على الجبهة الشَّماليَّة، وولّاه سرقسطة(Gebhardt, 1864: 389; Conde, 1900: I, 236). ومن ناحيتهم، قام الفرنجة بتعزيز نفوذهم في المناطق الجنوبيَّة المحاذية لجبال البرت، وبخاصَّة في مدينتَي كاستر(Castres) وكاردونا(Cardona) الواقعة شمال غرب برشلونة، وكرَّروا

هجماتهم ضدَّ المناطق الشَّماليَّة الشَّرقيَّة الأندلسيَّة في أواخر عهد الأمير هشام دون نصرٍ حاسمٍ لأيٍّ من الطَّرفين(الشَّيخ، ١٩٨١: ١٦٢).

**الحملة الأندلسيَّة ضدَّ أستورياس، وموقعة لوتس/لودوس (Batalla de Lutos\Lodos)**

بسبب النَّجاح الذي حقَّقته الحملات السّابقة فقد تشجَّع الأمير هشام عام١٧٨هـ/٧٩٤م[١٣] على تجريد حملة إلى كلٍ من ألبة والقلاع في القسم الشَّرقي من أستورياس وإلى غاليسيا في القسم الغربي منها؛ حيث تم تقسيم قوّاتها إلى جيشين: الأوَّل بقيادة عبدالكريم بن عبدالواحد بن مغيث[١٤]، وسار إلى ألبة والقلاع، وأعمل فيها قتلاً وأسراً ودماراً، ونجح في مهمَّته (ابن الأثير، ١٩٨٧: ٥/٣٠٤، ٣٠٦؛ النُّويري، ١٩٨٤: ٢٣/٢٠٩؛ المقَّري، ١٩٨٨: ١/٣٣٨). وصمتت المصادر الإسلاميَّة عن ذِكر أيِّ تفاصيل حول النَّشاط العسكري الذي قام به جيش هذا القائد، وحذت المصادر المسيحيَّة حذوها في ذلك، واكتفت بإشارة عابرة حول قيامه بالتَّوغُّل في المنطقة المذكورة(Gebhardt, 1864: 392). وأمّا الجيش الثّاني فكان بقيادة عبدالملك بن عبدالواحد بن مغيث، الذي توغَّل في أراضي أستورياس، فخرَّب ممتلكاتها وكنائسها، وحاز الكثير من الغنائم، ووصل إلى مدينة أسترقة(ابن الأثير، ١٩٨٧: ٥/٣٠٤، ٣٠٦؛ النُّويري، ١٩٨٤: ٢٣/٢٠٩؛ المقَّري، ١٩٨٨: ١/٣٣٨)، ثمَّ إلى العاصمة أوفييدو، وتمكَّن من قتل عدد كبير من رجالهم، وسبى نساءهم(مجهول، تاريخ، ٢٠٠٧: ١٧٣؛ بروفنسال، ٢٠٠٠: ١٣١)، "وكان أذفونش [ألفونسو الثّاني]، ملك الجلالقة، قد جمع وحشد، وأمدَّه ملك البشكنس، وهم جيرانه، ومن يليهم من المجوس، وأهل تلك النَّواحي، فصار في جمع عظيم"، ولكن الجمع المسيحي خام عن اللّقاء، ورجع الملك أدراجه، "وتبعهم عبدالملك يقفو أثرهم، ويُهلك كلَّ من تخلَّف منهم، فدوَّخ بلادهم، وأوغل فيها، وأقام فيها يغنم، ويقتل، ويخرِّب، وهتك حريم أذفونش"(ابن الأثير، ١٩٨٧: ٥/٣٠٦)، "وقتل من قمامصتهم [أي رؤساء أديرتهم] ورؤسائهم كثيراً" (النُّويري، ١٩٨٤: ٢٣/٢٠٩). ولمّا قفل الجيشان القرطبيّان عائدين نحو الجنوب ضلَّ الدَّليل الطَّريق، فاعترضهم الجيش الإسبانيُّ عند منطقة تكثُر فيها المستنقعات، فنالهم مشقَّة شديدة وقُتل منهم عددٌ كبير، ونفقت دوابُّهم، وتلفت آلاتهم، ونجح من بقي حيّاً في العودة إلى قرطبة(ابن الأثير، ١٩٨٧: ٥/٣٠٤، ٣٠٦؛ النُّويري، ١٩٨٤: ٢٣/٢٠٩؛ المقَّري، ١٩٨٨: ١/٣٣٨).

وأتت المصادر المسيحيَّة باقتضاب على النَّشاطات العسكريَّة الإسلاميَّة والانتصارات التي حقَّقها جيش القائد عبدالملك في القسم الغربي من أستورياس، وعجْز الملك ألفونسو الثّاني عن التَّصدي للزَّحف الإسلامي، وركَّزت هذه المصادر على المحنة التي تعرَّض لها الجيش الإسلامي خلال عودته من أوفييدو، والتي أشارت لها المصادر الإسلاميَّة دون أنْ تحدِّد مكان حدوثها وعدد القتلى فيها. ولا بدَّ هنا من استعراض الرِّواية المسيحيَّة حول نشاط القائد المذكور وما تعرَّض له جيشُه في طريق العودة: دخل عبدالملك أراضي أستورياس من ناحيتها الغربيَّة، ولم يجرؤ الملك ألفونسو الثّاني، الذي كان حينها في أسترقة، على مواجهته والتَّصدّي له، ما مكَّنه من اختراق الرّيف وتدمير قُراه وكنائسه. ويبدو أن الملك كان مشغولاً في ذلك الوقت بحشد القوّات، بهدف الانطلاق والإيقاع بالجيش الإسلاميِّ المُثقل بالغنائم خلال انسحابه عبْر جبال أستورياس الوعرة ووهادِها السَّحيقة، معتمداً على الخديعة والمكْر، حيث عمل على استدراج القوّات الإسلاميَّة نحو موضعٍ منخفضٍ كثير المستنقعات، حتّى يسهُل عليه الانقضاض عليها، وعُرِف هذا الموضع في المصادر المسيحيَّة باسم لوتوس(Lutos) ولودوس (Lodos)[١٥] (للاطِّلاع على جميع المواقع المرتبطة بهذه الموقعة، انظر: الشَّكل٣)، وهناك نصبت القوّات المسيحيَّة للمسلمين كميناً مُحكماً ما لبثوا أنْ وقعوا فيه، فأعملَ المسيحيّون السَّيف في رقابهم وقتلوا منهم سبعين ألفاً، بما فيهم القائد عبدالملك (Risco, 1789: XXXVII, 136; Mariana, 1794: II, 286; Gebhardt, 1864: 392-393; Quadrado, 1885: 71; Prat, 1887: 129; Villada, 1918: 74, 121; Puyol, 1926: 80). وأضاف كوادرادو أنَّ منْ لم يُقتل بحدِّ السَّيف، قُتل غرقاً بالوحل والماء والطَّمي(Quadrado, 1885: 71). وفي معرِض حديثه عن نتائج هذه الواقعة قال غيبهارت: مع أنَّ هذا الرَّقم مبالغٌ فيه إلا أنَّ من المؤكد مقتل اثنين من قادة الجيش الإسلامي، منهم يوسف بن بخت، وخسارة المسلمون غنائمهم ووقوع العديد منهم في الأسر(Gebhardt, 1864: 393)، ويبدو أنَّ الأمر قد التبس عليه فذكر يوسفاً بن بخت بدلاً من عبدالملك، وأمّا كولنز فشكَّك في هذا العدد من القتلى، ووصف الأرقام الواردة في المصادر الإسلاميَّة والمسيحيَّة بالهراء(Collins, 2012: 65).

واختلفت المصادر التّاريخيَّة في تحديد الموضع الدَّقيق لمسرح هذه المجزرة على الرَّغم من إجماعها أنَّه لوتس أو لودوس، وذكر الأب خوان دي ماريانا(ت. ١٠٣٣هـ/١٦٢٤م)، صاحب أقدم المصادر الإسبانيَّة التي اتَّكأ عليها البحث، أنَّها وقعت بالقرب من قرية ليدوس(Ledos)(Mariana, 1794: II, 286; Torrente, 1827: I, 98)، مع أنَّ الخرائط الحديثة لا تشير إلى أيَّة قرية في تلك المنطقة بهذا الاسم، وإنما لوس لودوس(Los Lodos) التي سيأتي ذكرها للتو، وأمّا المؤرِّخ الإسباني ريسكو الذي عاش في القرن١٢هـ/١٨م فأشار إلى صعوبة تحديد الموقع بالضَّبط، وربَّما كان في ياماس ديل مورو(Llamas del Mouro)، في كامبو دا متانثا(Campo da Matanza)(ميدان/ساحة المجزرة-حمام الدم)، الواقع بين تينيو (Tineo) وكنغاس ديل نارثيا (Cangas del Narcea)، وياماس تعني باللغة الأستوريَّة واللاتينيَّة: الحِداد(Risco, 1789: XXXVII, 136)، وأما مورو فتعني بالبرتغاليَّة الحاليَّة: المستنقع، وهذا يعني أنَّ هذا الاسم (حداد المستنقع، نكبة المستنقع) قد أُطلق على المكان فيما بعد، تخليداً لذكرى المذبحة. وأمّا الأب بيريث دي أربل فقال إنَّ المسيحيّين أوقعوا بالمسلمين عند القرية الأستوريَّة لوس لودوس في أعلى سلسلة التِّلال على جانبي نهر بيونيا (Pigüeña Pionia,) حيث

لا تزال تظهر هناك بلدة بلمونتي(Belmonte)، التي ينبع من جهاتها نهر فيجا(Vega)، ويُضيف المصدر أنَّه لا تزال بقايا الطَّريق الرّوماني القديم(Camino Real del Puerto de la Mesa) الذي سلكه الجيش المسلم عندما فاجأته القوّات الأستوريَّة بادياً للعيان(Perez de Urbel, 1945: I, 104). ومن الجدير بالذِّكر أن هذا الطَّريق ينطلق من الجنوب إلى الشَّمال من بابيا(Babia) متَّبعاً مجرى نهر أوربيغو(Orbigo) ثمَّ يمرُّ بتوريستيو(Torrestio) وبيلمونتي وموتاس(Moutas)، وبعد ذلك يسير بين كلٍّ من غرادو(Grado) وسالاس(Salas)، وهو طريقٌ مثاليٌّ للعبور الآمن للقوّات في منطقة معادية، ويتميَّز بكثرة المستنقعات الطّينيَّة وحدَّة الحوافِّ الجبليَّة المحيطة به، وعُدَّ من أكثر الطُّرق استعمالاً بين أستورياس وليون خلال العصر الرّوماني(Gonzalez Alvarez, 2011: 181 )، وأصبح فيما بعد من الطُّرق الرَّئيسة التي استخدمها المسلمون نحو المناطق الشَّماليَّة، ولهذا شيَّدوا على منحدراته المحارس وأبراج المراقبة(Avelino Gonzalez, 2013: 404-405). وخلص بعض الباحثين الإسبان إلى إنَّها حدثت على طريق لوس لودوس(Los Lodos) وليس في المكان الذي يحمل الاسم نفسه، قريباً من قرية ميرايو (Mirallo de Arriba) (Mirayu أو Mirayu d'Arriba) المطلَّة على مستنقعات لاس فيغاس (Las Veigas) حيث الطَّريق الرّوماني المذكور، وكان المسيحيّون يتحصَّنون على ارتفاع شاهق مقارنة مع الوادي، ومحميّين جيِّداً في منطقة يُمكن من خلالها التَّحكُّم بالطَّريق، ويبدو أنَّ عبدالملك حاول مهاجمة ميرايو ولكنَّه لم يستطع، فقامت قوّاتُه بحركة التفافيَّة من الجهة الغربيَّة حيث المنحدر الذي يؤدّي مباشرة إلى المنطقة المنخفضة الواسعة؛ ما سهَّل عملية الانقضاض عليها (Riestra, F.; Peraza, A.; Menendez, S., 2014: 49-52).

وعُدَّت هذه الموقعة، كما ورد لدى الأب ماريانا، من أهمِّ معارك المسيحيّين في الأندلس، وارتفعت روحهم المعنويَّة، و"تنفَّسوا الصُعداء، ورفعوا رؤوسهم عالياً، بعد أنْ أصبحوا في حلٍّ من هذه الجزية [المئة العذارى] المهينة والمذلَّة التي أدخلتهم في دائرة العبوديَّة"، وفي المقابل أدَّت إلى إضعاف قوَّة المسلمين، ومهَّدت الطَّريق للمسيحيّين لمواصلة القتال من أجل فرض سيطرتهم على البلاد من جبال البرت شمالاً إلى البحر المتوسِّط جنوباً. وكان من ثمارها المباشرة أن تمكَّن المسيحيّون من السَّيطرة على بعض المواقع الإسلاميَّة في منطقة نافار (Navarra) بمساعدة الإمبراطور شارلمان (Mariana, 1794: II, 286). وأفادت المصادر المسيحيَّة أنَّ الملك ألفونسو الثّاني أصبح أكثر جرأةً على مهاجمة الأراضي الأندلسيَّة، فزحف مخترقاً نهر دويرة إلى منطقة لوسيتانيا، ووصل إلى أعالي نهر تاجه، وهناك وجد قوَّة كبيرة من "الكفّار"(Infieles)، فقتل منهم الآلاف وأجبر الباقين على الفرار إلى مدينة أشبونة(Lisboa)، الواقعة على مصبِّ نهر تاجُه في المحيط الأطلسي، ومن ناحية أخرى، تمخَّضت هذه المعركة عن تعزيز الأوضاع الدّاخليَّة في مملكة أستورياس، ما أتاح لملكها إعادة تنظيم الحياة المدنيَّة والعسكريَّة(Torrente, 1827: I, 98; Lafuente, 1850: III, 214-215; Prat, 1887: 129).

**الحملة الأندلسيَّة ضدَّ مملكة أستورياس ومعركة وادي كوثيَّة (Batalla del Rio Quiros)**

لم يتوقَّف الأمير هشام عن تجريد الحملات العسكريَّة ضدَّ مملكة أستورياس، ويبدو أنَّ صائفة عام١٧٩هـ/٧٩٥م قد أتت انتقاماً من جانب القائد عبدالكريم بن عبدالواحد لما حلَّ بجيش أخيه عبدالملك ومقتله في وديان أستورياس الوعرة؛ ففي هذا العام، سار القائد المذكور على ضفاف نهر إيبرو على رأس جيشه حتّى وصل إلى منطقة ميراندا دي إيبرو(Miranda de Ebro) (الشَّكل٢) (Perez de Urbel, 1945: I, 105)، ثمَّ واصل زحفه إلى مدينة أسترقة، على بعد سبعة وعشرين ميلاً جنوب غرب مدينة ليون(Leon)، وتمكَّن من اقتحامها والاستيلاء عليها(بروفنسال، ٢٠٠٠: ١٣٢)، ومن أجل مواجهة هذا الخطر؛ حشد الفونسو الثّاني قوّاته واستنفر أهل مملكته وطلب المدد من البشكنس، وحتّى لا يُعرِّض مواطنيه للخطر؛ أمرهم بترك المناطق السَّهليَّة واللجوء إلى شعاب الجبال ومرتفعاتها ومعهم عددٌ من الفرسان، بهدف مهاجمة المسلمين على حين غرَّة، ولكن عبدالكريم أدرك خطَّة العدوِّ فقدَّم قائدَه فرج بن كنانة[١٦] على رأس أربعة آلاف من الفرسان لملاحقة الفارّين والسَّيطرة على المرتفعات، ثمَّ تبعه عبدالكريم على رأس قوّاته، واشتبكت القوّات الإسلاميَّة مجتمعةً مع المسيحيّين في معركة دامية (على ما يبدو في منطقة سان إيمليانو San Emiliano)، قتل المسلمون خلالها عدداً كبيراً من قُوّادهم مقاتليهم، وأسروا من بقي حيّاً ولم يتمكَّن من الفرار. وبعد أنْ تحقَّق لهم هذا النَّصر بثَّ المسلمون الخيل في القرى المسيحيَّة؛ فانتسفت المزروعات، ثمَّ تقدَّم عبدالكريم حتّى وصل إلى نهر كوثِيَّة (Quiros) جنوب شرق أوفييدو (عند تقاطع كوثيَّة مع نهر بيلغو Pielgo)؛ فلقي به قائدَ الفونسو الثّاني المدعو غُندُمارُه(Gadaxara) (Gondomaro)، وكان يقود جيشاً مكوَّناً من ثلاثة آلاف فارس، فقاتله المسلمون وقتلوا من فرسانه عدداً كبيراً، وأخذوه أسيراً، وحينها بدأوا بمطاردة الملك الذي فرَّ نحو الشَّمال، مؤثِراً تجنُّب الاصطدام مع المسلمين، فنزل عن الجبل الذي كان قد لجأ إليه، وسار حتّى وصل إلى حصنٍ منيعٍ كان قد بناه في أعالي وادي نلون(Nalon)(الشَّكل٣) جنوبيَّ العاصمة أوفييدو، فلاحقه المسلمون، وخلال زحفهم خرَّبوا وغنموا كل ما وجدوه حتّى أطلّوا على الحصن، فهرب الملك إلى قلعة قريبة، ما مكَّنهم من دخول الحصن والاستحواذ على المواد التَّموينيَّة والسِّلاح والذَّخيرة التي تركها جيشه، وفي اليوم التّالي انطلق القائد فرج على رأس عشرة آلاف فارس لاقتفاء أثره، وكاد الملك يقع في قبضة المسلمين، إلا أنَّه تمكَّن من النَّجاة بصعوبة، فغنموا كلَّ ما وجدوه في الحصن(ابن عذاري، ١٩٨٣: ٢/٦٤-٦٥).

ويذكر بيريث دي أربل أنَّ المسلمين واصلوا ملاحقة الملك حتّى أشرفوا على أسوار أوفييدو، ونظراً لصعوبة التَّضاريس وحلول الشِّتاء فقد أمر عبدالكريم جيشه بالانسحاب (Perez de

(Urbel, 1945: I, 105). وحول مصير الأسرى المسيحيّين؛ أفاد ابن عذاري أنَّهم قُتلوا بعد الانتهاء من المعركة بأمرٍ من القائد عبدالكريم (ابن عذاري، ١٩٨٣: ٢/٦٤)، الذي أقدم على ذلك، على ما يبدو، انتقاماً لمقتل أخيه خلال النَّكبة التي حلَّت بجيشه في موقعة لوتوس، ويبدو أنَّ ابن عذاري قد انفرد بذكر تفاصيل هذه الصَّائفة دون غيره من المؤرِّخين المسلمين، وأمّا ابن الخطيب، الذي أشار إلى هذه الأحداث باقتضاب، فقد أشاد بها ووصفها أنَّها كانت "غزاة شهيرة"(ابن الخطيب، ١٩٥٦: ١٢). وكانت هذه الصّائفة آخر غزوات الأمير هشام، وقيل أنَّها حقَّقت الغرض منها؛ بردع مسيحيّي الشَّمال، بعد أن ألحقت الدَّمار في ديارهم وزرعت الخوف في نفوسهم، فسكنوا، وساد الأمن في الولايات الشَّماليَّة حيناً من الزَّمن(زيتون، ١٩٩٠: ٢٧٥). ويُمكن القول إنَّ مِن عوامل نجاح هذه الحملة وسائر الحملات الأخرى، وقوف خيرة القادة من موالي بني أميَّة على رأسها، فضلاً عن حُسن القيادة والتَّنظيم، والعدد الكبير من القوّات المشاركة (مصطفى، ٢٠٠٤: ٨٣).

(الشَّكل١) شمال شرق الأندلس وجنوب شرق بلاد الفرنجة

(الشَّكل٢) ألبة والقلاع وجنوب بلاد البشكنس

(الشَّكل٣) وسط أقصى مناطق شماليِّ الأندلس

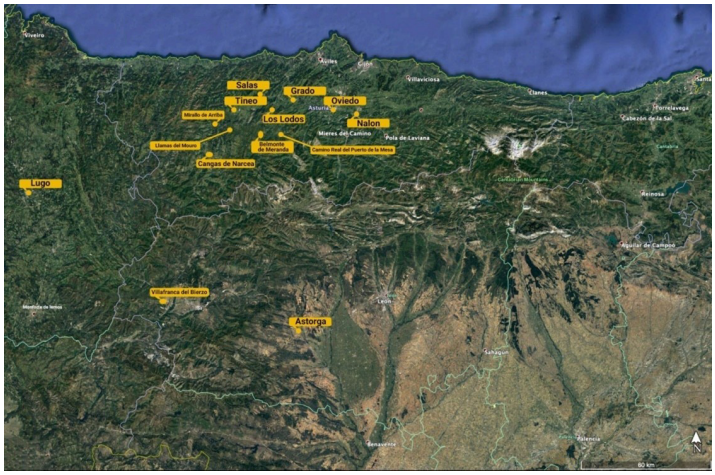


ومن ناحية أخرى، تكرَّرت رواية في المصادر الإسلاميَّة، مفادها: أنَّه بلغ من عزِّ الإسلام وذلِّ الكُفر في أيّام الأمير هشام أنَّ رجلاً في أيّامه أوصى قبل موته أنْ يُخصَّص جزءٌ من تركته للمساهمة في فكِّ أسرى المسلمين، وعندما أُريد تنفيذ وصيَّته لم يجدوا أسيراً واحداً يُشترى ويُفك بسبب قوَّة المسلمين وضعف العدوِّ آنذاك، وبسبب حرْص قوّات الأمير على تأمين الثُّغور واستنقاذ من يقع في يد المسيحيّين من أسرى المسلمين، فلم تترك أسيراً واحداً في قبضتهم(ابن عبد ربّه، ١٩٨٣: ٥/٢٣٢؛ ابن الأثير، ١٩٨٧: ٥/٣٠٨؛ النُّويري، ١٩٨٤: ٢٣/٢١٠)، مع العلم أنَّه لم يرد في المصادر التّاريخيَّة حدوث أيَّة عمليَّة فداء بين المسلمين والمسيحيّين، وفضلاً عمّا ذُكر؛ استطردت الرِّواية الإسلاميَّة قائلةً "ولم يُقتل أحدٌ من جنده في شيءٍ من ثغوره أو جيوشه إلا ألحق ولدَه في ديوان أرزاقه"(مجهول، أخبار ١٩٨٩: ١٠٩)، وإنْ دلَّ هذا على شيء فإنَّما يدلُّ على علوِّ همَّته في الجهاد وإيلائه العنصر البشريِّ عنايةً خاصَّة. ثمَّ ما لبث الأمير هشام أنْ توفِّي في الثّالث من صفر عام١٨٠هـ/السّادس عشر من إبريل٧٩٦م، وعمرُه أربعون سنة وأربعة أشهر وأربعة أيّام، قضى منها سبع سنوات وتسعة أشهر وثمانية أيّام أميراً، ودُفن بقصر قرطبة؛ وصلّى عليه ابنُه الحكم الربَّضي؛ الذي أخذ البيعة لنفسه من النّاس (ابن عذاري، ١٩٨٣: ٢/٦١، ٦٥).

ويبدو أنَّ وفاة الأمير هشام قد أراحت المسيحيّين من الهجمات السَّنويَّة المتواصلة (O'Callaghan, 1975: 103)، ذلك أنَّ عهد الأمير الحكم الرَّبضي شهد ركوداً في مجال الجهاد، لانشغاله بتوطيد أركان حكمه ومحاربة الثّائرين عليه، ما مكَّن الفونسو الثّاني من التقاط أنفاسه وإعادة تنظيم شئون مملكته، والسَّيطرة على مدنٍ أندلسيَّة جديدة، كمدينتَي بمبلونة وبرشلونة خلال الأعوام ١٨٢-١٨٥هـ/٧٩٨-٨٠١م (ابن الأثير، ١٩٨٧: ٥/٣٠٩؛ بروفنسال، ٢٠٠٠: ١٤٨). ومع مطلع القرن الثّالث الهجري/ التّاسع الميلادي أخذت الحدود المسيحيَّة الإسلاميَّة تتمثَّل بالأراضي الواقعة إلى الشَّمال من مدينة قُلُمرية (Coimbra) ثمَّ سلسلة جبال جوادارما (Guadarrama) التي تفصل بين حوضَي نهرَي دويرة وتاجُه، وتسير الحدود بالاتِّجاه الشَّماليِّ الشرقيِّ حتّى شمال سرقسطة، وهناك يشكِّل نهر إيبرو وروافده حدّاً طبيعيّاً منيعاً بين الأندلسيّين ومسيحيّي شبه الجزيرة الإيبيريَّة (Lane-Poole, 1898: 40).

**نتائج البحث**

- شهد عهد الأمير هشام نشاطاً عسكريّاً لافتاً؛ وأخذت حملاته ضدَّ أراضي الفرنجة والإسبان طابعاً جهاديّاً هجوميّاً ودفاعيّاً في آن واحد، مدفوعاً بالنَّزعة الدّينيَّة الجهاديَّة التي ميَّزت شخصيَّته، والدَّعم الذي تعزَّزت به سياسته من جانب المؤسَّسة الدّينيَّة، التي شارك رجالها في بعض حملاته كفرج بن كنانة ويحيى بن يحيى الليثي، ما مكَّنه من تجريد أكثر من خمس حملات سنويَّة، ويُعدُّ هذا العدد كبيراً إذا ما قيس بمدة حكمه القصيرة نسبيّاً، وبلغت جيوشه مناطق لم تصل إليها جيوش معظم خلفائه، وتميَّزت بضخامة أعدادها، وشملت عمليّاتها مساحات كبيرة في أعماق أراضي الفرنجة والإسبان، تمكَّنت خلالها من استنزاف طاقاتهم البشريَّة والاقتصاديَّة، والوقوف في وجه سياسة إعادة الاسترداد الإسبانيَّة. وحاولت بعض الرِّوايات المسيحيَّة تشويه صورة أخلاقيّات الحرب عند المسلمين وتصوير الجهاد الإسلاميِّ في الأندلس أنَّه ما هدف إلا للسَّلب والنَّهب والتَّخريب، وممّا يُؤسَف له انجرار بعض المصادر الإسلاميَّة خلف هذه الرِّوايات.
- عُدَّ النَّصر الذي تحقَّق على مملكة أستورياس في معركة نهر بوربيا ١٧٥هـ/ ٧٩١م، بالقرب من قرية فيلافرانكا ديل بييرثو، من الانتصارات المهمَّة خلال عصر الإمارة الأمويَّة في الأندلس، ولعلَّ من أهمِّ النَّتائج التي تمخَّضت عنه؛ إجبار الملك برمودو الأوَّل على التَّنازل عن العرش، وبهذا تكون نتائج هذه المعركة قد لعبت دوراً في التَّأثير على الأوضاع الدّاخليَّة الإسبانيَّة. وحاول الأمير هشام من خلال حملة جيرونة وأُربونة عام١٧٧هـ/٧٩٣م إعادة الخريطة الإسلاميةً في شمال شرق الأندلس وجنوب البلاد الفرنجيَّة كما كانت في سابق عهدها، وعلى الرَّغم من إخفاقه في ذلك؛ إلا أنَّه نجح إلى حدٍّ كبير في لجم الأطماع الفرنجيَّة في الأراضي الأندلسيَّة.
- عدَّت المصادر المسيحيَّة النَّصر الذي حقَّقه ملك أستورياس ألفونسو الثّاني على جيش الأمير هشام في موقعة لوتس عام١٧٨هـ/٧٩٤م واحداً من أهمِّ الانتصارات التي حقَّقها الإسبان على المسلمين خلال عصر الإمارة، بسبب فداحة الهزيمة التي مُني بها جيش القائد عبدالملك بن عبدالواحد بن مغيث، التي راح ضحيَّتها، حسب تلك المصادر، سبعون ألف مقاتل بما فيهم القائد المذكور، وهو رقم مبالغٌ فيه، إذْ لَو كان هذا صحيحاً لأثَّر بشكل مباشر على البنية العسكريَّة الأمويَّة في ذلك العهد، كما حصل بعد ذلك بقرون عندما انهار الجيش الموحديُّ برمَّته إثر النَّكبة التي حلَّت به في موقعة العقاب عام٦٠٩هـ/١٢١٢م. ومن ناحية أخرى؛ يعود سبب تمكُّن المسيحيّين من الجيش الإسلاميِّ وجوده في غياهب وديان أشتويرش وثنايا جبالها، وإحاطة الأعداء به من كلِّ ناحية، وغياب التَّنسيق بين كلٍّ من القائدين عبدالملك وأخيه عبدالكريم الذي كان في النواحي الشَّرقيَّة من أراضي مملكة أستورياس، وانتفاء إمكانيَّة قيام أيٍّ منهما بإنجاد الآخر. وعلى الرغم من اتِّفاق المصادر التّاريخيَّة والدِّراسات الحديثة على هُويَّة المنطقة التي حصلت فيها هذه النَّكبة، وهي لوس لودوس/لوتوس، إلا أنَّها اختلفت في تحديد مكانها الدَّقيق، وتميل الدِّراسة أنَّها لم تحدث في مكان واحد؛ فبعد أن ضلَّ دليلُ الجيش الإسلاميِّ الطَّريق، في منطقة المسالك الرومانيَّة القديمة، أحاطت به القُوّات الإسبانيَّة، فتشتَّت كتائبُه في شعاب الجبال ووديانها، على بعد مسافة أميال من بعضها، وتقطَّعت بها السُّبل، ما سهَّل على الإسبان الانقضاض عليها في غير موضع.
- لم يتمكَّن الإسبان خلال عهد هشام من التمدُّد جنوباً أو السَّيطرة على أيِّ موقعٍ أندلسيٍّ جديدٍ، سوى بعض المواقع الشَّماليَّة التي سيطروا عليها بمساعدة الفرنجة بعد وقعة لوتس، ما ميَّزه عن أبيه عبد الرَّحمن الدّاخل وابنه الحكم الربضيِّ اللذيْن خسرت الأندلس في عهديْهما مساحات كبيرة من الأراضي. ومن ناحية أخرى؛ يُؤخذ على السِّياسة الجهاديَّة الأمويَّة في عهد الأمير هشام عدم تمكُّن قُوّاته من الاستقرار في أيٍّ من المدن التي دخلتها، وتعود أسباب ذلك إلى إهمالهم الأطراف واعتماد أسلوب التَّوغُّل في أعماق مناطق النُّفوذ المسيحيِّ بعيداً عن مراكز السَّيطرة الإسلاميَّة الجنوبيَّة، ما جعلهم في كلِّ مرَّة منعزلين، بعيدين عن مصادر الإنجاد والإمداد العسكريِّ والتَّمويني، محاطين بوسطٍ معاد؛ فقد كان عليهم توجيه جيوشهم لمهاجمة المناطق الحدوديَّة الواقعة على نهر دويرة وتلك الواقعة في الجهات الشَّماليَّة الشَّرقيَّة، والعمل على انتزاعها ووضْع حاميات عسكريَّة إسلاميَّة فيها والاحتفاظ بها، ومن ثمَّ التَّوغُّل بالتَّدريج نحو الدّاخل، والقيام بإعادة استرداد مضادَّة.

**الهوامش:**

(١) من مدن غاليسيا، بقيت بيد المسلمين زهاء نصف قرن، وكانت من أوائل المدن التي استردَّها الإسبان عام١٤٠هـ/٧٥٧م، مع أسترقة وسمورة وشلمنقة (عنان، الآثار، ١٩٩٧: ٣٦١).

(٢) نقع بين بلاد البشكنس وجبال كانتابريا، على ضفاف نهر إيبرو في الطَّرف الشَّرقي من مملكة أستورياس، وكلمة ألبة أصلها آلابا (Alava) المشتقة من اللاتينية، وهي إحدى ولايات بلاد البشكنس، وتمتدُّ غرباً حتّى برغش (Burgos) وشمالاً حتّى خليج الباسك. وأمّا القلاع أو قشتالة القديمة فتقع إلى الغرب من ألبة، واشتملت على المنطقة الواقعة من برغش شمالاً إلى ما بعد نهر دويرة جنوباً، وتكثر فيها القلاع(عنان، دولة، ١٩٩٧: ١/٢١٧؛ بروفنسال، ٢٠٠٠: ١٦٣).

(٣) تقع في منطقة منخفضة في أقصى شمال غرب البلاد، شرقي غاليسيا، في القسم الأوسط من خليج بسكاي، وتحدُّها من الجنوب جبال كانتابريا، وفي منطقتها نشأت نواة أولى الممالك المسيحيَّة(الشكل٣)(عنان، الآثار، ١٩٩٧: ٣٦١-٣٦٢).

(٤) دخل الأندلس في طالعة بَلْج بن بشر القشيري(ت. ١٢٤هـ/٧٤٣م)، وكان أحد القائمين بأمر الأمير الدَّاخل، فاستحجبه واستخلفه على قرطبة، وتوفي بطليطلة في عهد

هشام الرِّضا(ابن الأبّار، ١٩٨٥: ٢/٣٧٥؛ المقَّري، ١٩٨٨: ٣/٤٥).

(٥) بلغ أربعين ألف مقاتل(الشَّيخ، ١٩٨١: ٧٤؛ عنان، دولة، ١٩٩٧: ١/٢٢٦).

(٦) ذكره ماريانا، واكتفى بالقول: في السَّنة الثّالثة من حُكم هشام، تعرَّض برمودو لهجوم بقيادة القائد العربي (Mugayo) (Mariana, 1794: II, 286).

(٧) القاطع الشَّمالي الشَّرقي الأندلسي، ويشمل: سرقسطة وهي قاعدة ذلك الثَّغر، وبرشلونة ولاردة (Lerida) وتُطيلة (Todela) وطرسونة (Tarazona) ووشقة ومدينة سالم(Medinaceli) وقلعة أيّوب (Calatayud) (المقَّري، ١٩٨٨: ١/١٦٦).

(٨) أحد أهمّ رجال الدَّولة في عصر الإمارة في الأندلس، جمع الحِجابة والوزارة والكتابة وقيادة الجيوش، مع حُسن الأدب والعفاف والدّين والتَّواضع والكرم والمروءة(النُّويري، ١٩٨٤: ٢٣/٢١٠).

(٩) والي الأندلس بأمرٍ من عمر بن عبدالعزيز، خمَّس الأراضي، وبنى قنطرةً على نهر الوادي الكبير، وسوراً لمدينة قرطبة. نشط في مجال الجهاد، وبخاصَّة في بلاد الفرنجة، وقُتل هناك عام١٠٢هـ/٧٢١م(مجهول، أخبار، ١٩٨٩: ٣٠-٣١).

(١٠) من بني قسي حكّام الثَّغر الأعلى، الذين ينحدرون من أصول قوطيَّة مسيحيَّة، وكانت أسرته تتمتَّع بمكانة عالية خلال الحكم القوطي. ولّاه الدّاخل على وشقة، ثم أعلن تمرُّده، وكان ممَّن ناصروا شارلمان خلال حملته على الأندلس عام١٦١هـ/٧٧٨م(أبو مصطفى، ١٩٩٧: ٤٧-٤٨).

(١١) وقيل بربطانية، ورسمها النُّويري: برطانية(النُّويري، ١٩٨٤: ٢٣/٢٠٨)، أما ابن خلدون: أرض سلطانية(ابن خلدون، ٢٠٠٠: ٤/١٦٠)، وقيل: سرطانية(مجهول، تاريخ، ٢٠٠٧: ١٧٢). وتُطلق بربطانية اليوم على مدينة بولتانيا شمال شرق مدينة وشقة، على السُّفوح الجنوبيَّة لجبال البرت(الحجّي، ١٩٨١: ٢٤٩)، وعلى الرَّغم من ذلك؛ يبدو أن أراضيها وفق المفهوم الإسلامي كانت تشمل المناطق الجنوبيَّة من إقليم سبتمانيا الفرنجي.

(١٢) ابن عذاري، ١٩٨٣: ٢/٦٤؛ مجهول، تاريخ، ٢٠٠٧: ١٧٢، انظر أيضاً: بك، ١٩١٣: ١٠٤؛ عنان، دولة، ١٩٩٧: ١/٢٢٧؛ Gebhardt, 1864: 389؛ Conde, 1900: I, 235. الرقم (٤٥٠٠٠) ذكره بروفنسال وكولنز للإشارة إلى عدد الأسرى، وليس إلى قيمة الغنائم(بروفنسال، ٢٠٠٠: ١٣٢؛ Collins, 2012: 65)، وهو أمر غير معقول .

(١٣) يخلط النُّويري بين هذه الحملة وتلك التي تلتها عام١٧٩هـ/٧٩٥م، فتجده يُعيد الرِّواية ذاتها بصورة أخرى للحديث عن الحملة التي وقعت في التّاريخ الأخير(النُّويري، ١٩٨٤: ٢٣/٢٠٩)، ولهذا سيعتمدها البحثُ كجزءٍ من الرِّواية المتعلِّقة بحملة ١٧٨هـ/٧٩٤م.

(١٤) أبو حفص، الكاتب، الوالي، الحاجب لهشام الرِّضا وابنه الحكم وللأمير عبدالرَّحمن الأوسط(٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢١-٨٥٢م)، وكان أبوه من قبله يتولّى هذه المناصب. ولّى هشامُ عبدالكريم كورة جيان وولّى أخاه عبدالملك كورة سرقسطة. كان عبدالكريم بليغاً مفوهاً شاعراً. أخرجه الحكم لقتال المتمرِّدين في الشَّمال، وقاد الصَّوائف ضدَّ مملكة أستورياس، ومات خلال قيادته لإحداها عام٢٠٩هـ/٨٢٤م (ابن الأبّار، ١٩٨٥: ١/١٣٥-١٣٦؛ الحجّي، ١٩٨١: ٢٤٧).

(١٥) هذه الكلمة تعني بالاسبانيَّة القديمة: الحِداد أو الطّين (Risco, 1789: XXXVII, 136).

(١٦) فرج بن كنانة بن نزار بن غسّان بن مالك بن كنانة، من أهل شذونة، فقيه وراوية، استقضاه الحكم الرَّبضي بقرطبة خلال (١٩٨-٢٠٠هـ/٨١٤-٨١٦م)، كما قاد الجيوش إلى الثُّغور، وله العديد من المآثر الجهاديَّة (ابن الفرضي، ٢٠٠٨: ١/٢٤٨).

## المراجع


ابن الأبّار، محمَّد بن عبدالله (ت. ٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، (١٩٨٥). الحلَّة السَّيراء، جزءان، ط٢، دار المعارف، القاهرة.

ابن الأثير، علي بن محمَّد الجزري (٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، (١٩٨٧). الكامل في التّاريخ، (ج٥)، ط١، دار الكتب العلميَّة، بيروت.

إبراهيم، مدحت (٢٠١٨). الرهائن السِّياسيون في الأندلس منذ الفتح الإسلامي وحتّى نهاية عصر ملوك الطَّوائف ٩٢-٤٧٩هـ/٧١١-١٠٨٦م، ط١، دار ببلومانيا للنَّشر والتَّوزيع، القاهرة.

أبو مصطفى، كمال (١٩٩٧). "المولَّدون في منطقة الثَّغر الأعلى الأندلسي ودورهم السِّياسي في عصر الإمارة الأمويَّة ١٣٨-٣١٦هـ/٧٥٦-٩٢٨م"، أبو مصطفى، كمال، بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، ٤٥-١١٦، مركز الإسكندريَّة للكتاب، الإسكندريَّة.

بروفنسال، ليفي (٢٠٠٠). تاريخ إسبانيا الإسلاميَّة من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبيَّة (٧١١-١٠٣١م)، ترجمة: إميليو جومث وعلي اليحيى وعلي منوفي، ط٣، المجلس الأعلى للثَّقافة، مدريد.

بك، محمَّد (١٩١٣). تاريخ العرب في إسبانيا، المطبعة الجمالية، القاهرة.

الحجّي، عبد الرَّحمن (١٩٨١). التّاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتّى سقوط غرناطة ٩٢-٨٩٧هـ/٧١١-١٤٩٢م، ط٢، دار القلم، دمشق-بيروت.

ابن الخطيب، لسان الدين، محمَّد بن عبدالله (ت. ٧٧٦هـ/١٣٧٤م)، (١٩٥٦). أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ط٢، دار المكشوف، بيروت.

ابن خلدون، عبد الرَّحمن بن محمَّد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م)، (٢٠٠٠). تاريخ ابن خلدون، ٧أجزاء، (د.ط)، دار الفكر، بيروت.

زيتون، محمَّد (١٩٩٠). المسلمون في المغرب والأندلس، الهيئة العامَّة لمكتبة الإسكندريَّة، الإسكندريَّة.

الشَّعراوي، أحمد، (١٩٧٣). هشام الرضا الأمير العادل والفقيه الأديب، دار النَّهضة العربيَّة، بيروت.

لشَّيخ، محمَّد، (١٩٨١). دولة الفرنجة وعلاقاتها بالأمويّين في الأندلس، مؤسَّسة الثَّقافة الجامعيَّة، الإسكندريَّة.

عبدالحليم، رجب (١٩٨٣). العلاقات بين الأندلس الإسلاميَّة وإسبانيا النصرانيَّة في عصر بني أميَّة وملوك الطَّوائف، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

ابن عبد ربّه، أحمد (٣٢٨هـ/٩٤٠م)، (١٩٨٣). العقد الفريد، ٩أجزاء، ط١، دار الكتب العلميَّة، بيروت.

ابن عذاري، محمَّد بن محمَّد (ت٦٩٥هـ/١٢٩٦م)، (١٩٨٣). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جزءان، ط٣، دار الثَّقافة، بيروت.

عنان، محمَّد عبدالله، (١٩٩٧). الآثار الأندلسيَّة الباقية في إسبانيا والبرتغال، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة.

عنان، محمَّد عبدالله، (١٩٩٧). دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأوَّل، القسم الأوَّل، من الفتح إلى بداية عهد النّاصر، ط٤، مكتبة الخانجي، القاهرة.

ابن الفرضي، عبد الله بن محمَّد (ت. ٤٠٣هـ/١٠١٣م)، (٢٠٠٨). تاريخ علماء الأندلس، جزءان، دار الغرب الإسلامي، ط١، تونس.

ابن القوطيَّة، محمَّد بن عمر (ت. ٣٦٧هـ/٩٧٧م) (١٩٨٩). تاريخ افتتاح الأندلس، ط٢، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

مجهول، (١٩٨٩). أخبار مجموعة في فتح الأندلس، ط٢، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

مجهول، (٢٠٠٧). تاريخ الأندلس، ط١، دار الكتب العلميَّة، بيروت.

مصطفى، خزعل، (٢٠٠٤) >>بنو أميَّة في الأندلس ودورهم في الحياة العامَّة ١٣٨-٤٢٢هـ/٧٥٥-١٠٣٠م<<، رسالة ماجستير، جامعة الموصل.

المقَّري، أحمد بن محمَّد (ت. ١٠٤١هـ/١٦٣٢م)، (١٩٨٨). نفح الطّيب من غصن الأندلس الرَّطيب، ٨أجزاء، (د. ط)، دار صادر، بيروت.

نعنعي، عبد المجيد، (١٩٨٦). تاريخ الدولة الأمويَّة في الأندلس، دار النَّهضة العربيَّة، بيروت.

النُّويري، أحمد بن عبد الوهّاب (٧٣٣هـ/١٣٣٣م)، (١٩٨٤). نهاية الإرب في فنون الأدب، ٣٢جزء، (د. ط)، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، القاهرة.

## المراجع الأجنبيَّة

Avelino Gonzalez, J. (2013). Oviedo y el territorio astur entre Mahoma y Carlomagno (siglos VII-IX), Actas XXXIX Semana de Estudios Medievales, Estella, De Mahoma a Carlomagno,los primeros tiempos (VII-IX), Gobierno de Navarra, Pamplona, (377-433).

Collins, R. (2012). Caliphs and Kings, spain 796-1031, Wiley Blac

kwell, Chichester, UK; Malden, MA.

Conde, J. (1900). A History of the Dominion of the Arabs in Spain, trans. Jonathan Foster, V. I, Goerge Bell, London.

Cuevas, A. (2016). La legitimidad de los reyes asturianos en las crónicas de Alfonso III, Estudios Medievales Hispánicos(5), (7-43).

Gebhardt, V. (1864). Historia General de Espana y de Sus Indias, Tomo Segundo, Libreria Espanola, Madrid; Libreria del Plus Ultra, Barcelona.

Gonzalez Alvarez, D. (2011). Vías romanas de montaña entre Asturias y León, Zephyrus, (67), (171-192).

Lafuente, M. (1850). Historia general de España desde los tiempos más remotos hasta nuestros días, Establecimiento Tipográfico, Madrid.

Lane-Poole, S. (1898). The story of the Moors in Spain, J. P. Putnam's Sons, New York, T. Fisher Unwin, London.

Mariana, J. (1794). Historia General de Espana, Don Benito Cano, Madrid.

O'Callaghan, J. (1975). A History of Medieval Spain, Cornell University Press, Ithaca and London.

Perez de Urbel, J. (1945). Historia del Condado de Castilla, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Escuela de Estudios Medievales, Madrid.

Prat, A. (1887). Covadonga, Tradiciones, Historias y Leyendas, Madrid.

Puyol, J. (1926). Origenes del Reino de Leon y de sus Instituciones Políticas, Imprenta Viuda e Hijos de Jaime Ratés Martín, Madrid,.

Quadrado, J. (1885). Asturias y Leon, Establecimiento

tipográfico-editorial de Daniel Cortezo, Barcelona.

Riestra, F., Peraza, A., & Menendez, S. (2014). La Batalla de Lutos\Los Llodos (Asturias, Ano 794) Una Hipotesis de Ubicacion en las Veigas-Picu Mirayu, Grado-Grau, Villa y Alfoz, Actas de las, Jornadas de Estudios Locales, n. 4, Círculo de E.E. Pramarenses, Publicacion de Difusion Gratuita.

Risco, M. (1789). Espana Sagrada, Tomo XXXVII, La Oficina de Blas Roman, Madrid, 1789.

Torrente, M. (1827). Geografía Universal Física, Politica e Historica, Tomo Primero, Imprenta de Don Miguel de Burgos, Madrid.

Villada, Z. (1918). Cronica de Alfonso III, Rivadeneyra Paseo de San Vicente, Madrid.